دراسات فى جولات :

بين ملائكة الرحمة . . .

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

... وكانت حملة الحضور على المرأة قد بلغت أشدها ، هذا يرميها بالنقص ، وذاك يدعوها شيطانا ، وثالث يحملها وزر كل تدهور أخلاقى وغير أخلاقى ، ولم يكن فى مقدورى مع ما بذلت أن أوقف بدفاعى تيار تلك الحملة الجارفة حتى شاء الله أن يبعث بمن يقوى على وقفها دون نقاش أو جدال ، إذ طلعت على الحاضرين سيدة هى زوج مضيفنا . وسرعان ما سكتت الألسن ، وصمتت الأفواه ، وبان الخجل والحياء فى حركات الرجال ونظراتهم التى وزعت فى كل صوب وحدب ...

وابتدرت سيدة الدار الحفل بالتحية ، ثم أردفتها قائلة وهى تهز رأسها فى دهشة واعجاب " أما كانت حفلة صحيح ! ! " قلنا أى حفلة ؟ قالت الحفلة التى كنت أحضرها الليلة . فتساءل أحدنا : حفلة فى السينما ؟ . قالت لا ، قال فى المسرح ؟ قالت لا . . . قال آخر لابد أن تكون حفلة شاى قالت لا سيدى . قلنا فما تكون إذاً هذه الحفلة ؟ فأجابت حفلة عشاء عدس فى بيت صديقتنا ليلى دوس لصالح جمعيتنا . . .

واسترعت إجابة صاحبتنا انتباهى ورأيتنى أتسلل بمقعدى نحوها أسألها فى فضول أى جمعية ياسيدتى هذه . قالت " الجمعية النسائية لتحسين الصحة ... و إذ سألتها عن أغراضها قالت " هذا أمر يجل بمثلك أن يراه و يلمسه بنفسه . . . "

سيدات وكفى . . .

لعالم النفس " الفرد أدلر " آراء طريفة فى تحديد مراتب الخلق ، فهو يرى فى الانسان حيوانا إذا ما حصر جهوده فى ارضاء رغبات ذاته ، و إنسانا عاديا حينما يضيف الى ذلك عنايته وتضحيته من أجل اسرته ، و إنسانا راقيا أو سيدا Gentleman إذا ما جاوزت خدماته أفق ذاته وأسرته ، فشملت الآخرين من بنى جنسه ، ونحن قياسا على هذا نرى فى الجنس الآخر طائفتين ، نساء وسيدات . وصاحب هذا القلم لم يؤمن يوما بأن بمصر سيدات بالمعنى الذى يحدده " أدلر " حتى رآهن رأى العين يعملن مخلصات فى ميدان الخدمة العامة ، رآهن للمرة الأولى فى جمعية مساعدة الفقيرات التى قامت بجهود بعض المربيات الفضليات ، وللثانية فى جمعية مبرة الأميرة فريال ، وقوامها لفيف من كرائم العقيلات مع بعض السادة من قادة حركة الاصلاح . وقد عرضنا لأمر هاتين الجماعتين فى مقالين سابقين واليوم نراهن فى تلك الدار التى تجلو

أمرها . وهكذا نشهد بغبطة وسرور مجال عمل سيداتنا يتسع يوما بعد يوم وهو فى اتساعه يقوى أملنا فى النهضة المنشودة و يبشر الراغبين فى الإصلاح بخير عميم .

ففى تلك الدار الصغيرة العتيقة "دار الجمعية النسائية لتحسين الصحة" التقينا بالفيف من هؤلاء المتطوعات اللواتى يستحققن بجدارة أن ندعوهن ملائكة رحمة ، يعملن جادات مخلصات فى تدبير العيش لطائفة هى أحق الناس بالعناية — أسرات مرضى السل من نساء وشيوخ وأطفال — يعنين بهم وبعائلهم المريض ويتكفلن بكل ما يلزمهم حتى يتم شفاء رب الأسرة إذا قدر له الشفاء .

ثمانون قرشا ! !

"نعم ثمانون قرشا تتبرع بها بعض الفتيات الصغيرات تؤسس بها جمعية يبلغ رأس مالها اليوم ستة آلاف جنيه . ." وابتسمت الآنسة ليلى أمينة صندوق الجماعة ابتسامة فيها معانى الفرح بالفوز والاغتباط بالنصر ، ثم بدأت تقص علينا من نبأ هذه الجماعة ما فيه أسوة وقدوة لمن أراد القيام بعمل إصلاحى. والآنسة ليلى هى كريمة سعادة توفيق دوس باشا ، وهى شابة من ذلك الطراز النادر الذى أصاب هدف السعادة إذ عرفها فى إسعاد البائسين واستمرأ لذة الحياة فى تيسير هذه الحياة للعوزين ، قالت الآنسة : " كان ذلك فى عام ١٩٣٦ حين نحنى ولفيف من زميلاتى مجلس عرضنا فيه لما ينبغى أن نشغل أنفسنا به بعد أن أتممنا دراستنا ؛ وقد أجمعنا الرأى على وجوب القيام بخدمة اجتماعية نسدد بأدائها بعض ما ندين به الفتاة المثقفة نحو بنى وطنها ، وقد عرضنا لمختلف الطبقات التى تستأهل الخدمة فلم نجد أحق من المرضى وأسرات المرضى . . وصمتت محدثتنا الفاضلة قليلا ثم عادت تقول : "وصادف فى ذلك الوقت أن وقفنا من بعض الأطباء على ما تعانيه مستوصفات الأمراض الصدرية من متاعب بسبب تعذر علاج بعض مرضى السل من أرباب العائلات لاضطرارهم مواصلة عملهم لإعالة أسراتهم وما فى هذا من خطر على حياة المريض نفسه وعلى حياة ذويه بل وكل من يحتك به لتعرضهم للعدوى بهذا المرض الخطير، لذلك وطدنا العزم على أن نبدأ عملنا برعاية أسرات مرضى السل والعمل على تدبير العيش لهم مع بذل العناية بعلاج المريض وعزله حتى يتم علاجه . واسترسلت الآنسة ليلى فى حديثها قائلة : "خرجنا من اجتماعنا الأول نبشر بفكرتنا ، التى لاقت قبولا وترحيبا من كل من صادفنا ولم نلبث أن اجتذبنا الينا الكثيرات من الفضليات أمثال مسز كوى مديرة ملجأ أبناء السبيل بالعجوزة ، والسيدة ايفا حرم الدكتور عبد المجيد بك محمود التى ترأس جماعتنا اليوم وندين لها بأكثر ما بإفناه من تقدم ونجاح . وتابعت الآنسة حديثها قائلة : " ولم يكد يمضى على اجتماعنا الأول أسبوع واحد حتى كنا قد قسمنا أنفسنا للعمل فمنا من اختص ببحث حالات الأسرات ، ومنا من انطلق الى بيوت ذوى اليسار يجمع منها

ما يسد حاجة المحتاجين وها أنت ترى حولى فريقا ثالثا من المتطوعات يساعدننا بصنع الملابس لتنتفع الجماعة بأثمانها " وأشارت الى عدد من السيدات التففن حول مكتبها وهن منكبات على حياكة بعض الملابس الصوفية . قلت " ولكن ما يجدى هـذا فى تدبير مال الجمعية وواجبها كما نرى يحتاج إلى مال وفير . . " قالت " إن موارد الجمعية تستقى من ثلاثة أبواب : الأول تبرعات المحسنين سواء باعانتنا مباشرة أو بالمساهمة فى الحفلات التى نقيمها. وقد قمنا فى العام الماضى بعمل حفلات كبيرة شرفت بعضها حضرة صاحبة الجلالة الملكة وحضرات أصحاب السمو الأميرات، كذلك تستعين الجماعة بما تدفعه عضواتها من اشتراك . ورسم العضوية عندنا صغير فهو لا يتجاوز خمسة قروش فى الشهر . والمورد الثالث هو من إعانة الحكومة وقد منحنا معالى عبد الحميد عبد الحق بك فى العام الماضى مبلغ ألف وخمسمائة جنيه من ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية لإعانة أسرات العمال المصابين بالسل . و إذ خشينا حين نوزع هذا المبلغ على هؤلاء أن ينفقوه ثم يعودوا بعد ضياعه الى ما كانوا عليه من ضيق عمدنا الى إيجاد صناعة لهم فنحن نشترى الأقمشة ونوزعها عليهم ليحكنها ونتولى نحن بيعها للمحلات الكبرى ونقيد الربح للأسرات فى دفاتر توفير ونضيف اليه من مال الإعانة قدرا مماثلا ومدت الآنسة ليلى يدها الى قمطر مكتبتها ودفعت الينا بعدد من هذه الدفاتر قيدت فيها مبالغ كبيرة كلها ملك لسيدات من أسرات المرضى .

واذ عن لى أن أسألها عن أوجه نشاط الجماعة قالت " نحن نساعد بالمال والغذاء والكساء أسرات المصابين ونتعهد المريض بعد شفائه بالعناية ونوجد له العمل اذا كان عاطلا ونعد للناقهين مستعمرة فى ناحية البساتين بمصر القديمة وقد تسلمنا الأرض وسنشرع فى البناء، ونحن نعول أكثر من سبعين أسرة نؤوى بعضها فى دار خاصة للجمعية، وهنا استأذنت الآنسة الفاضلة للقيام بزيارة هذه الدار شاكرا لها ما بذلت .

كيف يعملون :

تقدم جمعية تحسين الصحة الى أسرات مرضى السل مساعدات عديدة :

(الأولى) إسعافها بادئ ذى بدء بالغذاء والكساء ودفع أجرة السكن .

(الثانية) التوسط لإمدادها بمساعدة دائمة من إحدى وزارات الحكومة إذا انعدم فيها القادرون على العمل .

(الثالثة) إيجاد عمل للمريض إذا شفى وللقادرين من أهله .

(الرابعة) إيواء المعرضين للإصابة بالمرض فى منزل خاص تتوافر فيه الشروط الصحية .

وهى تكل أمر بحث حالات الأسرات الى إحدى عضوات الجمعية التى تتعرف أولا الى الأسرة ثم توالى التردد عليها حتى تتمكن من إيجاد جو مشبع بالثقة والاطمئنان بينها و بينهم

فإذا وقفت على أحوالها أمكنها أن تشير بالدواء الذى تراه ونحن نذكر مثالا لحالة مما تعالج الجماعة :

حولت إحدى عيادات الأمراض الصدرية المريض (س) لحاجته الى المساعدة فاتضح بالبحث أن :

١ — المريض يبلغ من العمر ٤٥ سنة وتقبل حالته الصحية العلاج بالمصحة .

٢ — الزوجة عمرها ٣٨ سنة وهى سليمة .

٣ — ابن عمره ١٤ سنة سليم ويعمل براديا بأجر يومى قدره أربعة قروش .

٤ — ابن عمره ١٢ سنة ضعيف الجسم ولا عمل له .

٥ — ابن عمره عشر سنوات سليم ولا عمل له .

٦ — ابنتان فى السادسة والرابعة من عمرهما .

٧ — والد عمره ثمانون سنة ووالدة فى هذه السن أيضا .

وتأوى هذه الأسرة المكونة من تسعة أشخاص إلى حجرة ايجارها خمسة عشرة قرشا ، وقد كان أول عمل للجمعية أن استأجرت مسكنا صحيا مكونا من غرفتين دفعت إيجاره وعزلت المريض فى غرفة خاصة وأرشدت الأسرة الى وسائل منع العدوى ثم ألحقته بعد ذلك بالمصحة واتصلت برب عمل الغلام الأكبر فرفعت أجره الى ستة قروش وأوجدت للثانى عملا بأجر قدره أربعة قروش وألحقت الأخير بعمل بغير أجر ثم منح أجرا قدره ثلاثة قروش ، وألحقت الوالد المسن بوابا بأجر شهرى قدره تسعون قرشا وهكذا كفلت لهذه الأسرة أسباب العيش حتى شفى الأب فاشتغل خياطا فى محل أسسته له الجمعية ، وتوالى الجمعية بواسطة إحدى عضواتها التردد على الأسرة .

وقد اتسعت دائرة خدمات الجمعية اتساعا يلمسه القارئ فيما هو مبين فى الجدول التالى :

السنة	الاسرات التى ساعدتها الجمعية	عدد أفرادها	عدد من ألحق بعمل	عدد من أدخل الملجأ أو المدرسة	الذين عولجوا من أمراض غير السل
متوسط الخمس السنوات الماضية	٣٦	١٥٧	٣١	٣٨	١٧
سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢	٩٥	٢٩٠	٨٥	١٠١	٧١

وقد بلغ عدد من ساعدتهم الجمعية حتى الآن مائة و إحدى عشرة أسرة تتألف من ثلاثمائة وثمان وأربعين نفسا أوجدت لأكثر من مائة منهم أعمالا وألحقت بالمدارس والملاجئ ما يقرب من مائة وستين .

وتقوم دار الجمعية لإيواء الأسرات فى شارع محمد على جوار جامع قيسون . قصدنا تلك الدار وشاهدنا كيف هيأت الجمعية لهؤلاء البائسين حياة هادئة مطمئنة : هذه سيدة يحيط بها أطفالها وقد استقرت فى حجرة صحية وضعت فيها متاعها . إنها تعيش فى هذه الدار كما كانت تعيش فى بيتها ، فهناك أثاث بيتها البسيط مرتب منسق وتلك صورة زوجها تزين بها صدر الحجرة . كان زوجها حاجبا فى إحدى المحاكم وأصيب بالسل ثم قضى ولما كان المستخدمون الخارجون عن الهيئة بالحكومة لا يمنحون معاشا و إنما يكتفى بصرف مكافأة صغيرة الى ذويهم فقد باتت هذه المسكينة لا تملك شيئا ولا أن قيض الله لها من هذه الجماعة من يؤويها و يتكفل بعيشها وعيش أولادها . وهناك فى تلك الدار ترى عشرات من أمثال هذه السيدة وكلهن يعملن أعمالا رابحة تعود عليهن بالكسب الوفير فقد أعدت لهن الجمعية ماكينات للخياطة يمكن بها الأثواب و يتقاضين عن عملهن أجرا . وتعنى الجمعية بتغذية وكساء نزلاء الدار وتعد لهم كل أسباب الراحة ، فهناك مذياع وفصل للتدريس للصغار ، ولهم حرية الخروج لزيارة ذويهم و يعودهم طبيب خاص للتحقق من سلامتهم وهكذا عمرت الجمعية بحسن صنيعها بيوتا كان مقضيا عليها بالخراب وأمنت الحياة لأسرات باتت بعد حرمانها عائلها مهددة بالتشرد والضياع .

عند رئيسة الجماعة :

قصدت بصحبة الآنسة ليلى دوس دار السيدة إيفا بالزمالك فلاقتنا أكرم لقاء ومضت تحدثنا بتلك الروح المستبشرة المطمئنة التى قل أن تراها فى غير الانجليزيات قالت :

لقد هالنى عند قدومى إلى مصر ما شهدته فيها من ضعف العناية بالحالة الاجتماعية وما لمسته فى أهليها من افتقار إلى الإصلاح . وكم كان يؤلمنى أن أرى وجوه القوم شاحبة وهم فى ذلك الوادى الزاهر النضير ، وأن ألمس آثار سوء التغذية فى أبدانهم وهم أصحاب ذلك النهر الذى يتغنى العالم بخصب ضفافه ووفرة مائه ، وصمتت السيدة الفاضلة قليلا ثم عادت تقول : كنت أمر بالأحياء الوطنية وأشاهد ما يحيق بالقوم من بؤس وشقاء حتى إذا عدت إلى هذا الحى الملىء بالكرمات والقصور تساءلت فى عجب : كيف يهمل هؤلاء الأثرياء شؤون مواطنيهم ، ولم لا يشغل كل قادر نفسه بإصلاح ما يتوى عليه من شؤون بلده إن لم يكن بماله فبجهده أو برأيه . ظللت على هذه الحال من التأثر والتألم حتى أتاحت لى تلك الجلسة أمامنا (وأشارت إلى الآنسة ليلى) فرصة القيام بخدمة و إن كنت أراها صغيرة إلا أنها تخفف بعض التخفيف مسئوليتى أمام ضميرى عن أداء شىء للبلد الذى يؤوينا والشعب الذى نعيش بين ظهرانيه .

وإذ سألت السيدة الفاضلة عما شاهدت من أسباب العناية بمرضى السل وأسرائهم فى الخارج قالت : لمرضى السل فى بريطانيا وفى غيرها من بلاد العالم المتمدين مصحات عديدة ومصر رغم أنها ضربت فى هذا الداء برقم قياسى بسبب سوء التغذية وفساد التهوية فى أماكن العمل وفى مساكن العمال والفلاحين ، هذا إلى عدم مراعاة تطبيق قوانين الصحة فى أكثر الأعمال ، أقول إنها رغم هذا لا تملك غير مصحتين اثنتين : واحدة بحلوان والثانية بالعباسية وهما لا تتسعان لعشر معشار المرضى . على أننا لا نحتاج فى مصر إلى مصحات كثيرة لو أننا راعينا ما يفعله الغربيون فى بلادهم ، ففى بعض البلاد تقوم الحكومة سنويا بإجراء كشف إجبارى على جميع الأهلين وتعزل المصابين منهم بأمراض معدية ومنهم مرضى السل فى معازل خاصة (Isolation Camps) وتتولى علاجهم بالمصحات فاذا بلغ المريض دور النقاهة أرسل إلى مستعمرة خاصة . وفى بريطانيا مستعمرات عديدة أهمها مستعمرة (Papeurth) وتعد بعض البلاد كالسويد وألمانيا حدائق خاصة للسلوانين ، وتابعت السيدة حديثها قائلة : على أن أهم ماينقصنا هنا فى مصر هو المعزل والمستعمرة ولهذين تعمل الجمعية التى أتشرف برياستها ، فقد تسلمنا أرض المستعمرة التى سنعدها للعمل قريبا ، وفى نيتنا إقامة المعازل بمجرد توفر المال فى أيدينا وإنى لأسألك أن تذكر ذوى اليسار من أهل البلد بمعاونة جماعتنا للنهوض بهذا العمل ، فليس أخطر على الصحة من ترك مرضى السل يختلطون بالأصحاء فى كل مكان . وإننا جميعا معرضون للإصابة ما دام هؤلاء المرضى طليقين يخالطوننا فى المقاهى ودور اللهو وفى الترام وفى السيارات العامة بل يشتركون فى إعداد الطعام الذى نأكله من خبز وإدام وحلوى وفاكهة .

وأدارت السيدة الفاضلة رأسها وا - لى صورة معلقة فى الحائط لشاب مريض بالسل وبجواره طبيبه وقد كتب تحتها عبارة "حكم الموت : The sertence of death" قائلة إن لهذه الصورة أثرا كبيرا فى توجيهى إلى خدمة هؤلاء البائسين ، وعادت الرئيسة العاملة تتابع حديثها عما يجرى فى بلدها الأصلى من عناية بالمرضى قائلة " إن النهوض بالمشروعات الاجتماعية لا يمكن أن يقوم على أكتاف الحكومة وحدها ، ففى بريطانيا يتحمل صاحب العمل ثلثى قيمة التأمين الصحى لمخدوميه وتعد الشركات الصناعية مستشفيات ومصحات لعمالها وتقوم الجمعيات الخيرية بخدمة المرضى والعناية بهم ، وهى ترسل من لدنها زائرة صحية تحل محل الأم فى العناية بالصغار إذا كانت الأم هى المصابة " واختتمت السيدة إيضا حديثها قائلة إن جهود جمعيتنا لا زالت ضئيلة الأثر ونحن فى حاجة إلى المال وإلى المتطوعات المخلصات وبقدر وفرة هذين تكون النتيجة التى نحصل عليها فى تحقيق آمالنا المنشودة " .

أهمية دور المرأة فى ميدان الخدمة الاجتماعية :

يقول الشاعر الفيلسوف " رابندرانات تاغور " فى كتابه " البيت والدنيا " إن لكل من الرجل والمرأة محيطا خاصا ، فمحيط الرجل يمتد فى معنى السعة ومحيط المرأة فى معنى العمق

ومكان المرأة الأول فى البيت وما يتصل به ، بينما مجال نشاط الرجل فى الكون الذى خلق له ... " هـذا ما يراه الفيلسوف الهندى وتلك هى الناحية المعيبة فى روحنا الشرقية ، وقد نسى هؤلاء الراغبون فى تقييد المراة فى حلقة البيت أن من النساء من خدمن بجهودهن المجتمع خدمات تقصر دونها هم الرجال ، فهذه مسز بيتشر ستو الامريكية قامت بأعظم عمل اجتماعى فى التاريخ وهو إعداد الرأى العام لتحرير العبيد فقد كان كتابها " كوخ العم توم " الملهم لأبراهام لنكولن للقيام بحربه ضد الجنوبيين المقاومين لحركة التحرير ، وهى لم تهب قلمها وجناتها الخدمة تلك القضية فحسب بل وهبت تلك الحرب ابنها الكابتن فردريك ، وها هو سفرها الجليل يترجم إلى ثلاث وعشرين لغـة وقصتها الخالدة تمثل فى المسارح وعلى الشاشة البيضاء من يوم إخراجها حتى الساعة ، وهناك أيضا مدام كورى مكتشفة الراديوم وابنتها جوليا التى فازت بوكالة وزارة البحث العلمى فى فرنسا عام ١٩٣٦ كما فازت بجائزة نوبل . وهناك لويزدى كوفيل صاحبـة فكرة إنشاء محاكم الأحداث وهى الآن فى الثانية والثمانين وتفخر باللقب الذى أضفاه عليها مواطنوها " كاعظم شحاذة " وهناك دوروثى كانفيلد صاحبة مشروع إيواء أيتام الحرب ، ومسز هيجسون التى مرت ببلادنا منذ سنوات حيث أوجدت فرعا لجمعيتها الخاصة بحماية النساء والأطفال ، والدكتورة منتسورى صاحبة الطريقة المعروفة فى التربية الحديثة ، وهناك غير هؤلاء وهؤلاء كثيرات . وفى تاريخنا العربى المجيد كما فى تاريخ الشرق أسماء لا نرانا بحاجة إلى ترديدها ، أسماء لا حصر لهـا لسيدات فضليات يزين الرجال فى ميادين الفكر والأدب والاجتماع . ونحن حين ندعو مواطناتنا أن يسعين إلى ميدان الخدمة الاجتماعية انمـا ندعوهن الى عمل هن خير من ينهض به ، فالمرأة أصلح من الرجل للقيام بالعمل الاجتماعى فهى أقدر منه على ترويجه والدعوة له ، والتأثير لجمع المال الذى هو عصب العمل وقوامه ، وهى أكثر أمانة وأميل الى الاقتصاد فى نفقات المشروعات ، وهى كذلك أحن قلبا وأرق شعورا وهى آمن من يدخل البيوت ويطمأن إليه فى بحث دخائل الأسرات .

وفى بلادنا اليوم جماعات ناشـئة تعمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية كجماعة " مبرة محمد على " ومبرة الأميرة فريال بمصر الجديدة وجماعة مساعدة الضريرات ومساعدة الأطفال والأمهات والجمعية النسائية لتحسين الصحة وكلها مفتقرات الى جهود سيداتنا الرحيمات .

يا بنات مصر من سيدات وفتيات :

ان الواجب يدعوكن أن تخرجن الى ميدان الخدمة الاجتماعية ، لقد رأيتن الأجنبيات يبذلن جهودهن وأموالهن لخدمة بلادنا المفتقر الى الاصلاح ، فلا تكونن أقل غيرة على مواطنيكم منهن . واعلمن أن السعادة الحقة هى فى إسعاد البائسين ولذة العيش فى تيسير هـذا العيش للعوزين فهيا هيا الى ميدان الخدمة يارسل الخير ويا ملائكة الرحمة .....

محمد عبد الكريم